الإبداع القسنطيني في مدح خير الفرقتين
ابن الخلوف القسنطيني أنموذجا

د. عبد المالك مغشيش أستاذ محاضر – أ -
جامعة عباس لغرور خنشلة

1-المديح النبوي القسنطيني (تاريخ وإبداع):

ظهر المديح النبوي مع بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فكان له دور مهم في الدفاع عن حياض الأمة، وقد عرف المديح النبوي، أنه ذلك الشعر الذي يخصصه الشاعر لمدح النبي عليه الصلاة و السلام في أزمنة مختلفة خاصة منها في مولده،وفي بعض المناسبات الدينية الأخرى، وهذا بتعداد صفاته الخلقية والخلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول ص مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية ونظم سيرته شعرا والإشادة بغزواته وصفاته المثلى، والصلاة عليه تقديرا وتعظيما. والمديح النبوي هو "ضرب من الشعر الدفين الذي تجيش به العاطفة الصادقة ويصوغه الإحساس المشبوب، وينحبس عنه الحب العارم"[1] .وهناك من يعرفه على أنه فن مستحدث لم يظهر إلا في القرن السابع الهجري مع البوصيري وابن دقيق العيد "[2].

برع القسنطنيون في مدح خير الأنام عبر العصور، بل إن معظم أدبائهم وشعرائهم نظموا قصائد و مقطوعة في هذا الغرض ،أو ألفوا كتابا في الشمائل المحمدية والمعجزات النبوية. فهذا "ابن قنفذ القسنطيني"(ت710هـ) خصص كتابا

---

[1] زكي مبارك: المدائح النبوية في الأدب العربي ،دار الجيل للطبع والنشر و التوزيع، ط1992،1،ص17.

[2] عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1982م، ص141.[هذا غير صحيح إطلاقا بل ظهر بظهور الدعوة النبوية للإسلام، وإلا فماذا نقول عن مدح كعب بن زهير له ص في قصيدته : بانت سعاد، ومن قبله حسان بن ثابت، وغيرهما ممن عاصرهما وجاء بعدهما، وما البوصيري إلا مقلد لكعب بن زهير، وكلام الجراري المستشهد به بعيد الصواب. المقدم لهذه الأعمال].

وسمه بـ"وسيلة الإسلام بالنبي ص في مدح النبي و ذكر صفاته وأخباره ومعجزاته.... أما" أبو علي حسن ابن أبي القاسم بن باديس القسنطيني"(ت787هـ)،نظم قصائد شعرية أطلق عليها اسم "النفحات القدسية"، أرسلها إلى مفتي ديار القدس، نوه فيها بعلماء و صلحاء المغرب والمشرق على حد سواء وفيها من مدح النبي الكثير . و"أبو محمد عبد الله بن محمد بليغ الدين القسنطيني(ت ق7هـ) له عدة قصائد شعرية جيدة في مدح الرسول ص وهذا " العروسي القسنطيني "كان حيّا قبل(897 هـ)،ألف كتابا بعنوان " وسيلة المتوسلين بفضل الصلاة على سيّد المرسلين "، وهو كتاب فيه ثناء وصلاة على النبيّ عليه الصلاة والسّلام ،ضمنه نثرا تارة وشعرا تارة أخرى، ، جعله صاحبه أربعة وعشرين مجلسا، كلّ مجلسه يبتدئه بالصلاة على المصطفى -عليه الصلاة والسّلام- وذكر مناقبه نثرا، والاستدلال على ذلك ببعض الحوادث والمعجزات التي وقعت في سيرة النّبي -عليه الصلاة والسلام- وفائدة الصلاة عليه، ثمّ يتبع ذلك بشعر يمدحه به ويثني عليه فيه[1]. ومن أروع ما جاء من شعر يمدح به الرّسول صلّ الله عليه وسلّم في هذا السِفر النادر، قول الشاعر:

لله كم بركات للرّسول بدت × ومعجزات تمادت في الأولى وغدت

تورية موسى ببعث المصطفى شهدت × كلّ طاغ بأقصى جهده خضعا

صلّوا على المصطفى يا كلّ من سمعا

فيما خصص" عبد الكريم بن الفكون (ت1073هـ) ديوانا شعريا في مدح الرسول ص ضمنه قصائد في التوسل بالنبي،منها قوله:

أضاء وجود الكائنات ببعث × وطلعته الغراّ من الشمس أضوأ

هو الغيث أحيا الأرض بعد موتها × وخاتم كل الرسل ثمت مبدأ[2]

---

[1] سليمان الصيد: نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من أخبار،الجزائر، ط1994،1،ص123

[2] أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم بن الفكون ،دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1986،1،ص 207

وكان مؤسس الزاوية الرحمانية "عبد الرحمن باش تارزي"(ت 1221هـ) ،نظم عدة قصائد و موشحات جميلة فيها الكثير من المدح لخير الأنام[1]،ومنها قوله:

صل يا رب على ذي الخلق × العظيم القدر نجم الأفق

يا هيل الود نور الحدق × ما يغيب طرفكم من رمق[2]

فيما كان لمصطفى باش تارزي"(ت1252 هـ) منظومة شعرية عنونها بـ " صل يا ذا الجلال و سلم على المصطفى و أله و كل من تلا .." . وقام بشرح هذه المنظومة "الشيخ عبد القادر المجاوي" و سماها " مواهب الكبير المتعال. [3] وألف "أحمد بن محمد المبارك القسنطيني"(ت 1265هـ) عدة كتب في شمائل الرسول ومعجزاته،كما عارض نظم عدة قصائد في مدح النبي عليه السلام [4].وألف" صالح بن مهنا القسنطيني"(ت 1910) عدد من الكتب في النبي عليه السلام منها: "أقرب الوسائل في الصلاة على النبي" و"جمع الشمائل" وله أيضا كتاب" مولد النبي".

2-ابن خلوف سيرة ومسيرة:

أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان بن محمد شهاب الدين الخلوف، شاعر و أديب و ناثر عرف بذي الصناعتين ، ولد بقسنطينة سنة (829هـ/ 1425م)، سافر به والده إلى مكة المكرمة و هو صبي فأقام بها معه مدة أربع سنوات. ثم تحول إلى بيت المقدس فحفظ القرآن وألم ـ بعلوم عصره، كالفقه، وتفسير القرآن الكريم، وعلوم اللّغة..ثم انتقل إلى القاهرة، حيث أخذ النحو و الصرف و المنطق

1الصيد سليمان:المصدر السابق، ص 76.

2 نفسه، ص 79.

3 المصدر نفسه اق، ص 97.

4 محمد الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف،مؤسسة الرسالة، تونس،1982،ص 78.

على يد الشيخ العز عبد السلام البغدادي[1]. يقول عنه "ابن أبي دينار": " الكاتب البارع خاتمة كتّاب الدولة الحفصية"[2].ويضعه عبد الله حمادي "مع فحول الشعر العربي بالأندلس و المغرب "من أمثال ابن زيدون ، وابن خفاجة، ومالك ابن المرحل...وغيرهم. "[3]،وقال عنه العربي دحو"لعل ثقافة الشاعر العربية الأصيلة التي أودعها مؤلفاته ،مكنته موهبته من الحصول على درجة فنية معتبرة في عهده"[4]

ويقول الشاعر عن نفسه: "كنت ممن ولع بعصفور النظم والنثر في الصبا مستوهبا من دوحيهما نسمتي القبول والصبا، مقتطفا لزهرتيهما من رياض الآداب ملتقطا لدريهما من أصداف صدفة الطلاب، لا أسلك واديا لم يترنم فيه مهما حمامهما، ولا أعكف على حديقة لم يمطر فيها غما . ولا أرقب سماء لم تلح فيها زواهرهما، ولا أخوض بحرا لم تتكون فيه جواهرهما إلى أن ظفرت من المطلوب بأوفى نصيب، واحتويت من كنانتها على كل سهم مصيب"[5].

حضي الشاعر بمكانة مرموقة في البلاط الحفصي بتونس، وأصبح من مقربي ولي العهد أبو "عمرو عثمان" الذي تولى زمام الحكم بين(839-896هـ).فنظم الكثير من شعره في مدح الأسرة الحاكمة،ونال بذلك الرضا و القبول والكثير من العطايا و المنح التي أغنته عن الحاجة، وبقي الشاعر وفيا لهذه الدولة مشيدا بأمرائها وسلاطينها .

---

[1] عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربيّ القديم دار البعث للطّباعة والنشر، قسنطينة،ط1 ،1986 ، ص1.

2ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تح: محمد شمام، المكتبة العتيقة ،ط3، 1387 هـ ص20.

3عبد الله حمادي:المرجع السابق، ص145.

[4]ابن الخلوف :الديوان"جنى الجنتين، في مدح خير الفرقتين"،تحقيق: العربيّ دحّو، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، (ط2)(2008) ،ص 42.

[5]ابن الخلوف :المصدر السابق ،ص 17.

خلّف ابن الخلّوف عدّة آثار علميّة انفرد بذكرها السخاوي منها: "نظم المغني اللبيب لابن هشام النحوي "، و"نظم التّلخيص في البلاغة "، و"مواهب البديع، في علم البديع"، و" جامع الأقوال في صيغ الأفعال "، و"عُمدة الفرائض"، و"تحرير الميزان، لتصحيح الأوزان"، شرح مواهب البديع[1]، وديوان في مدح حضرة النبي فاق به أئمة هذا الشأن و أبدع فيه من خلال مجموعة من القصائد،التي أبدع فيها وقد ضمن أشعاره الكثير من منطق التصوف الذي غلب عليه البحث في فلسفة الوجود و ثنائية الموت والحياة وظاهرة الارتقاء والحلول لكنه بسيط لا يرقى لما جاء به المشرقي. وتوفي سنة (899هـ /1494م) بتونس، ودفن في مقبرة العائلة الحفصية .

3-ديوان ابن الخلوف(قراءة في المدونة):

للشاعر ديوان من جزئين ،حقق الدكتور"هشام بوقمرة "الجزء الأول سنة1976م، وهو يظم مجموعة من الأغراض

الشعرية حسب المحقق، وهي: غرض المدح وتحته مجموعة من القصائد في مدح النبي عليه السلام ،و مدح السلاطين الحفصيين ، ومدح آخريين... وغرض الرثاء وخصه في رثاء ابنه محمد، و غرض الغزل وفيه مجموعة كبيرة من القصائد ، وأغراض أخرى منها الوصف و الفخر...وغيرها.

أما الجزء الثاني حققه الدكتور "العربي دحو" الديوان ووسمه الشاعر بـ "ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين" وعنونه بعض المترجمين بديوان الإسلام" [2] .الصادر عن ديوان المطبوعات الجامعيّة بالجزائر وخصصه الشاعر لمدح الرسول صل الله عليه وسلم ومدح خصاله، وأخلاقه ومبادئه، وأصحابه، وتمجيد مآثره ومعجزاته،وحججه وبراهينه، وفي نشر دعوته، وكان قد بدأه بمقدمة نثرية شيقة في أسلوبها مادحا فيها الرسول صل الله عليه وسلم،و مما جاء فيها:"...أمست به العيون قريرة، و أوضح الحجة بالحجج القاطعة، فهو البشير،

---

[1] ابن الخلوف :الديوان ، ص 12.

[2] ابن الخلوف :الديوان ، ص 40

النذير، السراج المنير ،الناسخ بمثله سائر الملل، أحد ركني التوحيد ، واسطة العقد،ملاذ الطائف ، أنس المنقطع قدوة المتبع ، مورد الظمآن..." [1].

كما تحدث الشاعر في ديوانه عن أدبه، الذي يراه سلاحا في سبيل الله، تبيانا للشمائل المحمدية ، فأظهر قوة سبكه و براعة نظمه ، وكل ظلك خالصا لوجه الله الأكرم وكما يقول:"فعندما احتويت على هذه السهام ادخرتها للرماية في سبيل القدوس السلام ،ولم أجد لهما غرضا أو هدفا يرتضى إلا تحسين وصف سيد الأكوان، ونظم بعض معجزاته التي لا يحصرها حسبان..و لا يحويها ديوان،...وأني لناثر، أو ناظم وصفا ما حواه من المحاسن و المفاخر..." [2].

وتتنوع قصائد الديوان من خلال غرض المدح إلى : قصائد المدح المباشر للممدوح، قصائد تعتمد الرمز الصوفي في تناول شخصية الممدوح ،وأخرى ترتكز على التوسل و الدعاء، و الاستغاثة.

وكان في أغلب هذه القصائد ينتهي بمدح "الأسرة الحفصية" ،مبرزا الكثير من الأحداث التاريخية التي تأصل للعهد الحفصي، ومنها ما ذكره في أحدى قصائده. وهو يمدح السلطان" أبي يحيى زكريا" المتوفي سنة(899هـ)، وينقل الأحداث التي وقعت في البلاط الحفصي و الصراع على ولاية العهد

هجم الصباح فأين يا ليل المفر × وجياده بالنصر واضحة الغرر
وإذا محاسنُك انطوتْ فيك فَعن × عليا "أبي يحيى" الثَّناء قد انتشر [3]

كما جعل الشاعر شعره سفينة النجاة ومركب السلام، متوسلا لائذا بالعزيز طامعا في عفوه و رضاه يقول في ذلك:

باسمك الأعظم الكريم بما قد × خط في اللوح من كلام خطير
بالكتاب العزيز، بالصحف بالتوراة × بالإنجيل الرضا بالزبور

---

[1] ابن الخلوف :الديوان ، ص 67-68

[2] ابن الخلوف :الديوان ، 68.

[3] ابن الخلوف :الديوان ، ص 25.

فاهن يا ابن الخلوف سوف تجازى × بنعيم وجنة وحرير[1]

و يوضح ذلك أيضا في آخر مقدمته النثرية حين يقول:ومن الله أرغب أن يجعل ذلك خالصا لوجهه..." [2].

كما تمنى على الله في إحدى قصائده من خلال رجائه أن يرحمه و أن يعتقه من النار و يتجاوز عن ذنوبه ،فيقول:

ونظمت في علياك عقد جواهر × يرويه كل مرسل ، ومسجع

لأكون في دنياي غير مضيع × وأكون في أخراي غير مروع

فاشفع بجاهك لي وكن لي مكوما × يا خير مأمول ، وخير شفيع[3].

وبهذا يعد ابن الخلوف من الشّعراء المرموقين في المديح النبوي ،ويعد من فحول شعر المديح في تاريخ المديح النبوي عبر العصور في اعتقادنا. و فاق بذلك كثيراً منهم .

1-توظيف ابن الخلوف القرآن الكريم في مدائحه للرسول ص:

إذا كان كل الكتّاب والأدباء يأخذون من التراث الأدبي العربي، فيستخرجون منه ما يدعم و يقوي معانيهم ونصوصهم وأهدافهم ، فإن كلام الله عز وجل ، هو الرافد الأساس والقوي الذي استخدم بشكل واسع عند "ابن الخلوف" لاسيما عند ورود سياقات روحية وعاطفية ، حيث قام الشاعر من خلاله بتفريغ شحناته العاطفية بتمثيلها وربطها بحقائق إلهية كأدلة ، ليكون بذلك كتاب الله ، خير ما يرسم على هديه طريق الحق .

و الحقيقة أننا لا نكاد نجد قصيدة في الديوان إلاّ ووظف فيها من هذا المصدر الرباني، وهذا

التضمين إما أن يكون اقتباسا مباشرا على مستوى الآيات، أو يكون على مستوى المعاني والألفاظ.

---

[1] ابن الخلوف :الديوان ، ص 68.

[2] ابن الخلوف :الديوان ، ص 25.

[3] ابن الخلوف :الديوان ، ص 84.

ويعود ميل الشاعر إلى الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم، لكونه كان متشبعا بالثقافة الدينية من خلال

تجربته العلمية الكبيرة و رحلاته العلمية التي أخذ من خلالها من معين الثقافة العربية الاسلامية ومن روح القرآن الذي يسري في عروقه،كما أنه عاش في عهد اتسمت فيه الأغلبية من أفراد المجتمع بالتّدين -والتدين الشديد لأهل المغرب هو خصوصية ينفرد بها عن أهل المشرق، ومما ورد من توظيف للقرآن الكريم نجد ذلك،في قوله:

أصلني بثناياه، ومن عجب × أنّ النّجوما تُرجى الهدايات[1]

ففي هذا البيت، وظف الشاعر الآية الكريمة: ﴿ وَعَلامَاتٍ وبالنّجْمِ هُمْ يهْتَدُونَ﴾ [2]. أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق.

والتوظيف القرآني عند الشاعر، لم يتوقف عند مستوى آية أو جزء منها. بل تعدى ليشمل البيان القرآني في لفظه ومعاني آياته، أي باستلهام معانيه، وربطه بموضوعات شبيهة بالواقع الذي تنطبق عليه ونراه وهو يوظف الحروف المقطعة التي وردت في بدايات بعض السور القرآنية ومنها ميم ، قاف عين ،في قوله:

دعوتُك ضارعا كدعاء نوحٍ × بما في الذكر من ألف ولامٍ.

ويونس، يا مجيب الدعوتينِ × ومن ميم، وقاف وعين

كما اعتمد في بعض الأبيات على التراكيب القرآنية المباشرة بصفة أساسية، من ذلك قوله:

قالوا : هي الروح، قلت الروح تعشقها × وكيف لا ولها منها امتدادات

قالوا: هي النور، قلت : النور ما صنعت × منها زجاجتها الغر النفيسات[3]

1ابن الخلوف :الديوان ،ص 88.

2النّحل: الآية16.

3ابن الخلوف :الديوان ،ص 23-24.

ففي البيت الأول وظف لفظة الروح التي تحيلنا إلى الآية القرآنية: ﴿ **ويسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ [1]. أما في البيت الثاني فقد اقتبس معناه من السياق القرآني في سورة النور من قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[2].

دعاه في ليلة المعراج خالقه × في حضرة حضرت فيها السعادات

وظف الشاعر حادثة الإسراء و المعراج بأسلوب رائع مبينا دعوة الله لحبيبه في ليلة المعراج التي واسى بها الله نبيه

2-توظيف الحديث النبوي الشريف:

ذهب الكثير من الكتاب والأدباء إلى توظيف أحاديث الرسول"صل الله عليه وسلم" ، لكن ليس بنفس الاقتباس من القرآن الكريم ، وجاء هذا التوظيف في أغراض شبيهة بما أتينا سالفا على ذكره بالنسبة للقرآن الكريم، فقد تفاعلت نصوصه مع التراكيب اللغوية للحديث الشريف بحسب ما تقتضيه المعاني كإيراد الجمل في أسلوب خبري، يكون غالبا دالا على تقرير الأحداث التي جرت. وهو حال ما عاشه الشاعر خصوصا مع معجزات الرسول أو مع شمائله نو أخلاقه و صفاته...، ويوقف كل معجزة ببيت مستقل ،فهو يقول:

البدر شقّ لقربه بتشوّق × والجذع حنّ لبعده بتفجع

والشّاة أنبأه الذّراع بسمّها × والضّب خاطبه بحقّ مصدع

والغيم ظللّه ودان لأمره لم ٍ× ادعاه بالغيوث الهمع

والصّخر لان له وحيته الربا × وأتت لنصرته الصبا بتسرع [3]

1:الإسراء الآية85.

2:النور الآية35.

[3]ابن الخلوف :المصدر السابق، ص92.

وفي هذه الأبيات، يعدّد ابن الخلّوف معجزات النبيّ ﷺ فيذكر منها : انشقاق القمر له، وحنين الجذع إليه، وتنبيه ذراع الشّاة المسمومة له، وتكليم الضّب وتصديقه لرسالته، وإظلال الغيمة له من الحرّ الشديد.كما يوظف الشاعر حديث النبي في ذكر أسمائه ، ليؤكد كلامه ،حين يقول الشاعر:

الفاتح ، الهادي ، الرسول، المصطفى × الخاتم الماحي ، الهمام ، الأشجع
القائم ، الداعين الإمام، المرتضى × الصادق ، الوافين الأمين ، الأروع
الحاشر العقب الماحي الذي مُحيت × عند الورى بمواضيه الغوايات

وقد ثبت في حديث صحيح عن النبي ص ما ظاهره تحديد عدد أسمائه ص كحديث جبير بن مطعم. رضي الله عنه . أن النبي ص قال :لي خمسة أسماء: أنا محمّد، وأحمد، وأنا الماحي الّذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الّذي يحشر النّاس على قدمي، وأنا العاقب"[1].

وقد يتعدى ذلك إلى الغوص في أعماق ذات الشاعر الانفعالية أو الفكرية. فيمتزج الخبر بالانطباع أو وجهة النظر تبعا لانتماءات الكاتب الفكرية والعقدية . ومن أجود قصائد ابن الخلوف في مدح النبيّ - صلّ الله عليه وسلّم - قصيدته العينيّة التي أبدع فيها وصال وجال مرتكزا على حديث أم معبد في وصف النبي عليه السلام.

الفاتح، الهادي، الرّسول، المصطفى × الخاتم، الماحي، الهُمام، الأشجع
القائم، الدّ اعي، الإمام، المرتضي × الصّادق، الوافي، الأمين، الأروع
حيث المواهب، غوث ملهوف الحشا × ليث الكتائب، معقل المتمنّع
زاهي الجبين، أزجّ ، أبلج، أشنب × عبل الذّراع، طويل متن الأصبع
ضخم الكراديس، أدعج العينين أقنى × الأنف، رحب الصّدر، فخم الأضلع[2]

---

1 ابن عبد البر: الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار ، دار الوعي، القاهرة،1993،ج27، ص441.

[2] ابن الخلوف :المصدر السابق، ص91.

يعدّد ابن الخلّوف، في هذه الأبيات، بصفات رسول الله ﷺ وأسمائه، ويبرز خصاله الحميدة. ومن صفاته الحسنة التي ذكره: الصدق، والوفاء، والأمانة، والشجاعة، وعلوّ الهمّ ة، وحسن لإمامة. ثمّ يصف جسده ﷺ فيذكر جبينه، وذراعه، وأصابعه، وعينيه، وأنفه، وصدره، وأضلعه وغيرها من الأوصاف التي ذكرتها أم معبد .

فكانت عناية الشاعر بتوظيف الحديث الشريف مرتبطة بتخير الألفاظ حتى تكون صدى لظروف الحياة الواقعية، ومرتبطة أيضا بالاستعمال الفني لأدوات النص الشعري و الإجادة فيها، وقد نمّى من هذا التوجه الفني في نصوصه رغبت منه في التوسع في مدلول الكلمات العربية.

وقد تبع ذلك تطور لغوي، بسبّب توليد الكتاب و الأدباء المعاني وتأنقهم في تخير الألفاظ، بالإضافة إلى تأنقهم في العبارة كاستعمالهم الجمل المتساوية التواصل مما يضفي على التراكيب روعة في اللفظ والمعنى بالرغم من اكتفائه بالجزء اليسير من الحديث الشريف، أو ما يخدم سياق النص ،ونادرا ما يورد التركيب اللفظي للحديث كاملا

يا أسَ عارضهِ في ورد وجنته × هل زجرفت بك في النيران جنات[1].

يستحضر القارئ للبيت قول النبي عليه السلام:" حفت الجنه بالمكاره والنار بالشهوات".

3-توظيف الأحداث التاريخية التي ذكرت في القرآن والسيرة النبوية :

يعتبر تاريخ البشرية مصدر مهم يلبي رغبات الإنسان في الإطلاع على حياة الأفراد والمجتمعات، ومعرفة أسرار الوجود والتطور الإنساني ، لأخذ العبر والدروس، يقول "عبد الرحمن الجيلالي":" إنّ للتاريخ أثرا كبيرا في الثقافة العامّة ،فهو سجلّ الأيام من سياسة وعمران،وفن وأدب" [2].

---

1 ابن الخلوف :الديوان ،ص 18.

2عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت ، ج1، ط4، 1980 م ،ص17.

يدخل الرافد التاريخي في النصوص الأدبية النثرية للاستشهاد والتمثيل والتأكيد بالحجة والبرهان والدليل التاريخي القاطع،وقد وظف الشاعر التاريخ في عمومه من تاريخ الأنبياء إلى التاريخ الإسلامي إلى تاريخ معاصريه ،ومنها توظيف تاريخ الأنبياء و أحداثهم نجد قوله:

خير النبيين، مبدأ الرسل، خاتمهم × أعزز بهم بدئا للرسل مختتما
إن كان عيسى أعاد الميت منتعشا × فالصلد في كف طه سبح الحكما
أو سيرت لسليمان الرياح فقد × فقد سار البراق بطه من حمى لحمى
أو أوقف الطير داود فقد وقفت × الشمس يوم الأربعاء كرمة
أو أن موسى أرى الطوفان منفلقا × فإن أحمد ابدي البدر منقسما
أو صار نوح على الطوفان مرتقبا × فإن طه رقى أعلى العلا، وسما[1]

ويمضي في ذكر معظم الأنبياء ومعجزاتهم (آدم ،إبراهيم ، يونس، إدريس...) معقبا بأحداث تاريخية وقعت للنبي ص.

كما أشار عرضا لبعض الأحداث كما في حادثة غزوة الأحزاب، حين أرسل الله على المشركين ريحا اقتلعت خيامهم مما جعلهم ينسحبون من حصار المدينة، وهذا في قوله:

و لواء أهل الشرك نكس إذ علا × علم الهدى بين اللوا والأجرع
و خيامهم قد قوضت من حينها × بالبيض تقويض الجهام المقلع[2]

كما يعدد معجزات الرسول وفق منهج تاريخي متناسق،من خلال سرد أهم ما قام به النبي في مساره الدعوي وفق أحداث مرتبطة بالبعثة و بالهجرة و ببعض الغزوات ،ومنها قوله:

ودك ملك كسرى بعد عز × و أوهى دار فارس بالبوار
وأخمد نارهم بعد اشتعال × وغور مائهم بعد انفجار

---

[1] ابن الخلوف :المصدر السابق، ص90-91.

2ابن الخلوف :المصدر السابق، ص82.

ووقته الغمامة حر قيظ × و جاءته بأمياه غزار[1]

وهذا البيت عندما خرج إلى الشام مع جده و هو صبي و قصته مع الراهب بحيرة.

وطرف سراقة قد ساخ لما × أراد ظهوره ذو الاقتدار[2]

وهنا يتحدث عن هجرته و ما تلاها من بحث قريش عنه و حديثه صل الله عليه وسلم مع "سراقة بن مالك" حين لحقه و سقط من على فرسه .

وأبرا ريقه عين علي × بخيبر يوم جدل بالفقار[3]

كما عرج عن معجزة إبراء علي كرم الله وجهه من الرمد حين أراد غزو خيبر في السنة 7هـ .

4-توظيف الشعر العربي:

استخدم الشاعر أشعار مقتبسة من الرافد الأدبي العام للموروث الشعري العربي على مدى العهود السابقة .وكانت عملية الاقتباس من الشعر تتم غالبا على مستوى اللفظ أو المعنى،كما تأتي على مستوى الصياغة أحيانا، وكلّ هذا يدل على الاطلاع الكبير للشاعر على الموروث الأدبي في جانبه الشعري وتأثّره به ،لأنه أيضا من جملة المعارف التي اشترط توفرها في الأديب وفي هذا يبين "النويري" المعارف الأساسية اللاّزمة التوفر عند الأديب ومنها:« حفظ أشعار العرب ومطالعة شروحها، واستكشاف غوامضها، والتّوفر على ما اختاره العلماء منها كالحماسة والمفضليات والأصماعيات ،وديوان الهذليين ،وما شابه ذلك ، لما في ذلك من غزارة الموادّ وصحّة الاطلاع على أصول اللغة ... »[4] .

كما يذكر الفائدة الحقيقية التي يجنيها الأديب ،بعد تمكنه من هذه المعارف الأساسية، وبالقدرة والتمكن الجيد من استدعائها عند الحاجة إليها في

1نفسه، ص86.

2نفسه، ص86.

3نفسه، ص86.

[4]النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب،طبعة مصر ، 1923،م7، ص32.

قوله :« فإذا أكثر المترشح للكتابة من حفظ ذلك وتدبر معانيه سهل عليه حلّه، وظهرت له مواضيع الاستشهاد به ، وساقه الكلام إلى إبراز ما في ذخيرة حفظه منه ، ووضعه في مكانه ، ونقله في الاستشهاد والتضمين إلى ما كأنّه وضع له .وكذلك حفظ جانب جيّد من شعر المحدثين كأبي تمام والمتنبي ...للطف مأخذهم، ودوران الصناعة في كلامهم، ودقّة توليد المعاني في أشعارهم، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة » [1].ومما قاله الشاعر ،وقد ساءت الأحوال بينه وبين ولي العهد الحفصي ،وقد غادر إلى القاهرة، قوله:

ظُهور العوالي إن أردتَ المعاليا × وسمر العوالي إن أردت المعاليا

وإن عدمت ترشيش حظا من النهى × فما النجم مفقود ولا الصبح خافيا

وما كنت ممن يرتضي الذُّلَّ شيمة × إذا لم ينلْ بالعز أقصى المراميا

أبت همتي إلا ارتقاء إلى العلى × وهل يرتضي بالخَسف من كان عاليا

فما كل وجه بالبشاشة مشرق × ولا كلُّ جيد بالمكارم حاليا[2]

يتفجر الشاعر حنقا وغضبا ويقبض على حكمة من حكم القدماء فيصوغها صياغة مؤثرة معبرة عن ضيقه وقلقه، أن المجد والشرف لا ينال حتى تتوشح بالسيف وبالرمح لتكسب الرفعة والعلا. وعندما لم يجد الشاعر من الكرامة والتبجيل في تونس. و قد أصبح الأمر جليا واضحا كنور الصباح بعد تبدد الظلام، ضمن الشاعر قول المتنبي:

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلَّة × فلا تستعدن الحسام اليمانيا

ولا تستطيلن الرماح لغارة × ولا تستجيدن العتاق المذاكيا

حببتك قلبي قبل حبك من نَأَى × وقد كان غدارا فكن أنت وافيا [3]

في نيل الشرف الرفيع والمكارم والمحامد أن يحمل الإنسان السيف والرمح مدافعا عن هذه المكانة التي لا تعطى منَّةً من أحد ،وإنما المجد والشرف يكتسبان

---

[1] نفسه، ص34.

[2] ابن الخلوف :المصدر السابق، ص21.

[3] المتنبي: الديوان، ص.417.

بالتضحية وبالسهر تنال المعالي.ثم يقرر في إصرار أن النفس العالية لا ترضى بالخسف وبالأقل لأنها نفس جبلت على المعالي والرفعة، فلا تقبل بذلٍّ أو هوانٍ. ثم يخلص إلى ما يشبه الحكمة أنه ليس كل من تظاهر بالبشاشة هو كذلك، فقد تنطوي نفوس كثير من الناس على تبطين وغدر كحاله مع ولي العهد في تونس.

كما أستأنس شاعرنا واقتفى أثر البوصيري،في حادثة ميلاد النبي و ما حدث في هذا العام لنار المجوس و عمارتهم، في قوله:

و انشق إيوان كسرى عند مولده × مسرة ، إذ رأى نجم الهدى نجنا
و لم تغض ساوة إلا لحسرتها × إذ لم يكن قد سقى سلسالها الحرما
و نار فارس إجلال له خمدت × و النهر طوعا له من جريه انفطما

وكأننا به يستحضر قول البوصيري:

و بات إيوان كسرى و هو متصدع × كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
و النار خامدة الأنفاس من أسف × عليه و النهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة أن غاصت بحيرتها × ورد واردها بالغيظ حين ظمي[1]

ولكن هناك تجديد للشاعر في ما تعلق بالتنويع و التفصيل في جزئيات الموضوع التي تنبئ عن مدى عمق ثقافته و موسوعيتها.

3- نظام الاستهلال في قصائد ابن الخلوف:

يستهلّ ابن الخلوف قصائده النبويّة بمقدّمات متنوعة غزليّة صوفيّة يصفون فيها حنينهم إلى رؤية المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم- ، وشوقهم إلى زيارة البقاع المقدّسة، كالحرم الشّريف وغيره. ثمّ يصفون المطيّة ورحال المواكب المتوجّ هـ إلى المشرق لأداء فريضة الحجّ وزيارة مكّة، حيث بيت الله الحرام، والمدينة، حيث قبر النبيّ -صلّ الله عليه وسلّم،ومنه قوله في إحدى قصائده الرائعة، قوله:

غَزَالَةُ الصُّبْحِ تَحْكِيْ نَرْجِسَ الغَسَقِ × وَصَارِمُ البَرْقِ يَحْكِيْ وَرْدَةَ الشَّفَقِ
وَغَادَةُ تُجْلى في الغَلائِلِ إِذْ × أَلْقَتْ قِنَاعَ الدُّجَى عَنْ وَاضِحِ الفَلَقِ
وَعَنْبَرُ الغَيْمِ أَذْكَاهُ الشُّعَاعُ إِلى × أَنْ عَمَّ نَشْرُ شَذَاهُ كُلَّ مُنْتَشِقِ

---

[1] ابن الخلوف :المصدر السابق، ص97.

وَالرَّوْضُ يَجلو عَرُوسَ الزَّهْرِ في حُلَلٍ × قَدْ جَمَّعَ الحُسْنُ مِنْها كُلَّ مُفْتَرِقِ
مِنْ أصفَرٍ فَاقِعٍ أَوْ أخْضَرٍ عَطِرٍ × أَوْ أَبْيَضٍ نَاصِعٍ أَوْ أَحْمَرٍ شَـرِقِ[1]

4-نظام الخروج في قصائد ابن الخلوف:

ويختم الشاعر مدائحه النّبوية، في الغالب، بالتّوجّه إلى الله، طلبا لمغفرته، أو إلى الرّسول –صلّ الله عليه وسلّم- ، طلباً لشفاعته يوم القيامة، ثمّ الصّلاة والسّلام على الرّسول الكريم، وبالدعاء والتّوسل لقضاء الحاجات. ومن الأمثلة على هذا قول ابن الخلّوف في قصيدة له:

وصلّ على الأملاك والرّسل كلّهم × وآل التقى ما جانب الحلَّ محُرِم

وفي قوله:

وأدم صلاتك و السلام على النبي المصطفى × الهادي ،الرسول ، الأشفع
و أفض على الأصحاب أصبغ حل × رقم النعيم أديمها بتمتع
ما هل و بل الدمع من وجد وما × هبت رياح الشوق بين الأضلع[2]

5-لغة الشاعر:

عمل الشاعر على "استنطاق اللغة وتفجير طاقات الكلمات، لأن الكلمات

ليست مجرد أحجار كريمة ملقاة في حقل الطبيعة بإهمال ما و على الشاعر سوى

التقاطها، فإن تلك الجواهر قد يشحب لونها وينطفئ بريقها [3].فجاءت لغته بمستويات فنية متعددة من المستوى الإشاري إلى الإيحائي والمجازي والإستعاري، كما تفاوتت بين الوضوح والغموض وبين التقرير والإخبار، وتعدد المعجم الشعري للشاعر فتعددت روافده من الصوفي إلى اللغوي ، إلى الديني، إلى التاريخي .

1ابن الخلوف :الديوان ،ص29.

2ابن الخلوف :الديوان ،ص85.

[3]رجاء عيد: القول الشعري، منشأة المعارف، مصر، 2000،ص179.

واستخدم التّكرار لما له أهميّة في الأسلوب الأدبيّ ؛ فهو يقوي النغم الموسيقي، ويوضح المعنى ويؤكده. ومن الأمثلة عليه في مدائح ابن الخلوف، قوله::

قالوا: بمن جُنّ قيس فؤاده × فقلت: جُنّ قيس المتيّم[1]

فقد كرر الشاعر جملة جن قيس، تاركا نغما موسيقيا في أذن القارئ ومؤكدا للمعنى.

لولاه ما كان نجم، ولا، ولا فلك × ولا وهاد، ولا غور، ولا أكم[2]

كما استخدم التكرار في مولديته الطويلة و التي عنونها ب" الدر النظيم في السر العظيم" و التي كرر فيها مجموعة من الضمائر و الألفاظ من مثل (هو، حبيب...)،ومنها قوله:

هو الغاية القصوى لمن طالب × هو الآية العظمى لمن يتفهم

حبيب هو الياقوت و الجوهر الذي × هو الفرد لا يحكي و لا يتقسم

حبيب هو النور المشعشع و الذي به × الخطب يصحو جوه المعتم[3]

كما وظف في القليل من المواضع لغة عامية يحس بها القارئ دخيلة على النص الشعري ومنها، قوله

و لا تختشي من كيد حاسد مجده × فمنك به الباري أبر و أكرم[4]

خاتمة:

تميّز المديح النبويّ عند شعراء قسنطينة عموما وابن الخلوف خصوصا بصدق المشاعر، ونبل الأحاسيس، وقوة العاطفة، وتدفقها ،ومن خصائص هذا الفنّ عندهم: استخدام اللّغة البسيطة، وتوظيف المعجم الدينيّ، وكثرة الصّور البيانيّة، وشيوع المحسّنات البديعيّة، والنّظم في الأوزان المألوفة، كما تميزوا بطول النفس في القصيدة المولدية فهذا ابن الخلوف ينظم قصيدة في 550 بيت.

1ابن الخلوف :الديوان ،ص83.

2ابن الخلوف :الديوان ،ص29.

3ابن الخلوف :الديوان ،ص85.

4ابن الخلوف :الديوان ،ص123.

كما عارض الشاعر في الكثير من قصائده الشعراء القدامى في فن المولديات، واضعا لبنة لمن جاء بعده من الشعراء، وقد سد فراغا في الشعر المولدي في العهد الحفصي، بإنشائه لديوان كامل خصصه لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

عدت القصيدة المدحية عند ابن الخلوف، متَنَفَّس له، لما آل إليه أمر المسلمين في المشرق والمغرب فكان الاحتماء بالرسول ﷺ وبالدين الإسلامي، والتوسل به عندما ضاقت الأمور بالناس لعل الفرج يأتي.

أحسن توظيف آيات القرآن الكريم مما دل على قوة استحضار وحفظ وحسن فهم ،دعم بها نظمه ، كما اقتبس من السنة النبوية وضمن الكثير من الأحاديث النبوية، واستعان بالأحداث التاريخية التي عاشها النبي لتأكيد وقائع ارتبطت بمعجزاته. كما سجل الكثير من الأحداث التاريخية التي ميزت عهده خاصة الصراع حول السلطة في البيت الحفصي ،ولم يكتفي بذلك بل وظف الشعر العربي القديم ليدلل على قدراته الثقافية الموسوعية العالية.

تلاعب ابن الخلوف باللغة في جميع مستويات تعبيره، مرة يلين ويسهل ، وتارة يغرب حتى تصبح لغته كلغة شعراء الجاهلية تحتاج إلى قاموس لتذليل ألفاظها وقام بتطويعها لكل غرض من الأغراض التي قال فيها الشعر،كما تعددت مستوياتها من اللغة الصوفية إلى التقليدية .وهو في كل ذلك يصدر عن نفس أصلية أسلوبا ولغة وعواطف. دون تكلف في البحث عن الغريب الشارد من اللغة، و مرد ذلك إلى تكوينه العلمي المتميز بين الحواضر العلمية في المشرق و المغرب، حيث امتلك الشاعر ناصية اللغة، فأصبحت أداة طيعة في شعره.